مقدمة

رغم أن الدين أهم نواحي النشاط الانساني وأقوى تراث ثقافي فان اللغة العربية تكاد تكون خلوا من الكتب التي تتحدث عنه . وأقصد هنا بالدين المظهر الاجتماعي لسلوك الانسان نحو الله كما يراه الباحث الاجتماعي مجردا فكره عن أي اعتبار شخصي . فهو يدرس الدين كما يدرس باقي المظاهر الاجتماعية كالأسرة والقانون والأخلاق وغيرها

وليست دراسة الدين بالأمر الهين فما أكثر الأديان وما أعقدها ، وقد توضع عشرات الكتب عن دين أحد القبائل البسيطة كالبولينيزيين مثلا ومع ذلك فان الباحث يراها أقل من أن تفي هذا الدين حقه من الدرس والبحث . ولذلك كانت كثرة الكتب التي وضعت باللغات الأوربية عن الدين تستوجب الدهشة . الأمر الذي دفعني إلى هذا الكتاب الصغير . وهو وان كان قليل القيمة الا انني أرجو أن يكون مشجعاً للباحثين على الكتابة في هذا الموضوع

لا يتحدث هذا الكتاب عن جميع أديان العالم بل عن ما يمكن أن نسميه مجموعة الأديان الغربية العالمية وأهمها الاديان الفطرية والديانة المصرية القديمة واليهودية والمسيحية والاسلام والتطورات الدينية الحديثة . وذلك تمييزا لها عن مجموعة الأديان الشرقية الهندية والصينية وعن الأديان القومية كديانة اليونان والرومان

والسبب في اقتصار البحث على الأديان الغربية هو رغبتي في التحدث عن الدور الذي لعبته مصر بالنسبة للأديان ، وقد كانت مصر بطبيعة دينها وتاريخها أقرب صلة بالأديان الغربية منها بالأديان الشرقية ، فان تحدثنا عن تاريخ الأديان الغربية فانما نتحدث عن أحد نواحي تاريخ مصر نفسه ، بل نتحدث عن ما هو أكثر من ذلك وهو الصلة القوية التي تربط هذه الاديان حتى انها تكاد تجعل منها عقيدة واحدة المصدر متغيرة المظاهر بتأثير البيئات التي انتشرت فيها وبدافع الظروف التي اكتنفتها

ولو أن تاريخ الانسانية يعتبر ناقصا مبهما إذا ما أسقطنا منه تاريخ آلهتها ، فان دراسة الاديان ظلت زمنا طويلا بعيدة عن أفق العلم ، ولم يهتم بها العلماء إلا منذ عهد قريب

اهتم بعض المؤرخين الاغريق قديماً بأفكار وعادات الشعوب التي اختلطوا بها . وقد سمى لذلك هيرودوت « أول عالم أنتروبولوجي للدين » وكذا وصف تيوبمبس الوثنية الفارسية في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولما كان ميغاستين سفيرا للبلاط في الصين عام ٣٠٢ ق . م دون ملاحظاته عن العادات الوثنية في أواسط وادي الجانج . ولما ظهرت المسيحية دون كثير من الآباء المسيحيين

القدماء كثيراً من الملاحظات المتعلقة بالعقائد المنتشرة حولهم من أوجه نظر عديدة. واشتهرت مكتبة الاسكندرية فى عهد بطليموس فيلادلف أي فى القرن الرابع بعد الميلاد بجمع الكتب المختلفة فكان من خطة أمنائها جمع الكتب المقدسة التى للأثيوبيين والهنود والفرس والبابليين والاشوريين والاغريق والرمانيين والفينيقيين

وفى العصور الوسطى نرى البوريني (٩٧٣ م) يقارن بين عقائد الاغريق والمسيح واليهود بفلسفة وديانة اليهود ، وجمع أمبراطور المغول الاكبر فى بلاطه (١٥٤٢ — ١٦٠٥) البراهمة والزرادشتيين واليهود والمسيحيين والمسلمين وحاول ترجمة كتبهم المقدسة

ولما ظهرت النهضة فى الغرب ابتدأت دراسة الدين تأخذ أساسها العلمي الحديث، فدرس توماس هيد (١٦٣٦ — ١٧٠٣) ديانة الفرس القديمة ، وحلل جون سبنسر (١٦٣٠ — ١٦٩٣) القوانين اليهودية وبحث من جديد نظرية استخدام الله لطقوس وأفكار متوسطة فى قيمتها لكى يمهد السبيل لما هو أرقى منها . ويعتبر سبنسر أول من كتب فى علم الاديان المقارن . وكذا حاول اللورد هربرت (١٦٤٥) أن يرجع أصل جميع الاديان الى الحقائق الاولى الخمسة للكاثولوكية وظلت نظريته سائدة مدة قرنين وكان جلادستون (١٨٦٨) آخر المبشرين لها . ثم وضع كودورث (١٦٧٨) كتاب « النظام العقلى الحقيقى للوجود » قائلا ان الانسان لم يكن مطلقا ملحدا فان الأوثان كانت مجرد رموز . وأتى بعده دافيد هيوم فوضع بحثه عن التاريخ الطبيعى للدين (١٧٥٧) على مبدأ تطور الجمعية البشرية من نشوئها الفطرى

ومنذ ذلك الوقت قامت الابحاث الحديثة على فكرة النشوء . ويعتبر ديبوا أول من كتب فى تاريخ الدين كتابة علمية فى كتاب « أصل جميع العقائد » (١٧٩٤) فحاول أن يرجع أصل جميع الآلهة حتى المسيح الى أسطورة الشمس

وبمرور الزمن وجدت هذه الابحاث انتشارا عظيما ، فابتدأت بعثات الجزويت فى الهند والصين وأخذ يعمل كثير من الباحثين الانجليز بزعامة وليم جون وكلبروك على نشر كنوز الادب السنسكريتى ثم أخذ الباحثون الالمان والفرنسيون يوسعون أفق البحث . وكان اكتشاف حجر رشيد فى مصر مفتاحا للغة الهيروغليفية . وكذا اكتشفت الحروف المسمارية فمكن ذلك العلماء الاوربيين من معرفة محتويات مخلفات مصر وبابل وأشور . ومن ثم أخذ السياح والبعثات الدينية تصف عادات القبائل الفطرية فى كل مناطق العالم . وفى نفس الوقت كانت الفلسفة تعمل على حل مشكلة الشعور الدينى . فحاول كثير من الفلاسفة الالمان أمثال ليسنج وهردر وكانت وهيجل وفيخت وشيلرماخر وأتباعهم شرح الدين على ضوء العقل ، وارجاعه الى أصوله من الفكر والشعور . وشرح كونت

نظريته المشهورة (١٨٤١) عن أدوار المعرفة الثلاثة . بينما كان علم الشعوب Ethmagraphy يجمع الحقائق من كل أجزاء العالم ، وابتدأ علم النفس يحلل أشكال المعتقد والشعور الديني

أما من وجهة النظر التاريخية واللغوية فقد ابتدأ البحث فى أول الامر فى موضوع الاساطير فحاول مكس موللر فى كتابه (الميثولوجيا المقارنة) البحث عن العناصر المشتركة فى الفكر الآري ليصل الى أسرار الديانة الفطرية . ثم تبعه جريم ومانهاردت ، فكان ذلك بدأ تكوين علم الانثروبولوجيا . ومنذ ظهور كتاب تيلور (الثقافة الفطرية — ١٨٧١) وجدت دراسة نشوء الدين كثيرا من حماسة الباحثين . فأخذ كل من موللر وهربرت سبنسر يشرح نظريته فى نشوء الدين . فعزا الاخير أصل الدين الى عبادة الموتى وتبعه جرانت الن وليبرت فى ألمانيا ، ولكن أندرو لانج كان من المعارضين لهذه النظرية فأصدر كتاب (السحر والدين — ١٩٠١) وقال ان فكرة الاعتقاد بكائن أعلى ظهرت ضمن سياق التطور ثم انحطت بعد ذلك عند ما اعتقد الانسان بالعفاريت والآلهة الصغيرة . ووجد جيوفنز الاصل الاول للدين فى الطوطمية فى كتاب (تاريخ الدين ١٨٩٦) ويرى فرازر ان الدين أحد أدوار السحر ، ويرجعه كرولى فى كتاب (شجرة الحياة ١٩٠٥) الى غريزة الحياة ويربط مظاهره الاولية بعمليات الحياة العضوية . أما ولهلم وندت فى كتاب (الخرافة والدين) فيقول ان التصورات الاولية عن الروح هى مصدر نشوء الدين

وعلى العموم فان مسألة نشوء الدين لا يمكن تحديدها من الوجهة الارخولوجية أو التاريخية بل يجب أن يشترك علم النفس فى هذا التحديد. وان ما يضعف هذه النظريات هو فروضها ، كما يضعف الابحاث التاريخية المبالغة فى التأمل الذاتى ولذلك ظهرت فى أوائل هذا القرن طريقة جامعة بين الدراسة التاريخية والابحاث الانثروبولوجية ، ويعتبر جريبنر وانكرمان « ١٩٠٤ » وشميت « ١٩٠٨ » واضعى أسس هذه المدرسة التى يطلقون عليها المدرسة التاريخية الثقافية

ليس الدين فى الواقع الا أحد المظاهر الاجتماعية ، ولذلك فان دراسته تعتبر ضمن العلوم الاجتماعية التى تخضع لقوانين البحث الاجتماعى ، ومن بديهيات هذه القوانين ، أننا لكى ندرس أي مظهر اجتماعي لابد لنا من تقسيمه الى أربعة أقسام — « ١ » الناحية التشريحية « ٢ » الناحية الفسيولوجية « ٣ » الناحية الفلسفية « ٤ » الناحية التاريخية وبعبارة أخرى يجب أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة — « ١ » ما هو الدين « ٢ » ماهى وظيفته ؟ « ٣ » ماهو الغرض منه ؟ « ٤ » كيف نشأ وتطور ؟ ، والسؤال الاول يلوح أنه بسيط بالنسبة للشخص العادى الذى لا يعرف الدين إلا من الناحية العملية ، ولكنه سؤال عسير بالنسبة للباحث الذى يدفعه تفكيره الى مراعاة جميع العقائد الدينية من أبسطها الى أعقدها

وضعت كثير من التعاريف لكلمة الدين أهمها تعاريف سبنسر ومكس مولر ورواتس وجوبلت والافيلا وكثير غيرهم وهم يرون أن الدين هو « التسليم بقوة خفية تحتاج الى التعبير عنها » أو هو « قسم من الفكر » ويرى شليرماخر أن الدين هو شعور الاعتماد على الله أو هو « الميل الظاهر التبجيلي أو الشكل العقلي الذي نسميه التدين » ويري تيل « أن أساس التدين وروح الدين هما العبادة »

ولكن التقدم الحديث لعلم النفس والعناية المتزايدة والعمل الدقيق الذي قام به علماء الانتروبولوجيا أدى الى ادحاض هذه الآراء ذات الجانب الواحد ، وأصبح من الأمور العادية التصريح بأن فى الدين جميع جوانب الشخصية مشتركة ، فالأرادة والشعور والفكر ضرورية ، فهي عناصر لاتنفصل عن الدين . وفى ذلك يقول فليدرر « ان الفكر والارادة فى الدين ليست نهاية فى ذاتها كما هو الحال فى العلم والاخلاق ، ولكنها تابعة للشعور باعتباره مركز الاحساس الديني »

وأهم التعاريف الحديثة هي تعاريف فرازر وسابتيير ووليم جيمس ، ويرى الأول أن الدين هو « استرضاء وتهدئة القوى التى أعلى من الانسان ، والتى يعتقد الانسان أنها تدير وتقود مجرى الطبيعة والحياة البشرية » ويرى سابتيير « أن الدين هو الصلة التى تدخل بها النفس المكروبة مع القوة الخفية وتشعر أنها ومصيرها يعتمدان عليها » ويرى وليم جيمس أن « الحياة الدينية تتكون من الاعتقاد بوجود نظام خفي وأن صالحنا العظيم يتوقف على تناسقنا مع هذا النظام ، وهذا الاعتقاد والنظام هما الدينية للروح »

نستنتج من التعاريف الحديثة ان الدين هو أحد أنواع النشاط أو شكل من أشكال السلوك . ومن الخطأ أن نسميه شعورا أو معتقدا خاصا

أما عن وظيفة الدين فى الحياة فقد شمل تأثيره جميع نواحي نشاط الانسان القديم . يولدالطفل فتباشر القبيلة عدة طقوس لكى يصبح الطفل سليلا لطوطم القبيلة وفردا منها . ولم تكن للانسان أية فكرة عن التناسل كنتيجة للاختلاط الجنسي ، لذلك أعتقد أن الولادة من الاسرار الآلهية . ومما يثبت ذلك أغلب القصص الميثولوجية التى وصلتنا عن الآلهة التى ولدت من أمهات عذارى . فهي برهان على جهل الانسان بالعلاقات الجنسية

اذا صار الطفل رجلا تزوج ولكن وفقا للاوامر الدينية المفروضة ، وقد اعتمدت الأسرة الاولى على العلاقات الطوطمية التى منعت الزواج الداخلي وأباحت الزواج الخارجي وبالتالى حددت العلاقات الجنسية للافراد بعضهم ببعض

كذلك كان تأثير الدين فى حياة الانسان الاقتصادية عظيما خصوصا فيما يتعلق بالزراعة فقد اعتقد الانسان أن النباتات تنمو بفعل الأرواح فكان يقدم الضحايا لكى تنمو حاصلاته وتكثر

كان للدين أيضا شأن عظيم فى تطور القانون والخلق ، فقد أوجد آراء حقوق الملكية وقدسية الحياة البشرية ، وكان القاتل يعتبر نجسا يحرم على سائر أفراد القبيلة النظر اليه وكان المتاع يترك فى حماية الطقوس الدينية التى كان الانسان يظن أن لها من القوة السحرية مايجعل الشيء المراد الاحتفاظ به خطرا على أى شخص يمسه خلاف صاحبه

ننتقل الآن الى الناحية الثالثة وهى الناحية الفلسفية . يتوقف الغرض النهائى للدين على مقدار الرقى العقلى الذي أصابه المتدين . فالانسان الأول لجأ فى حل معضلات الوجود الى الاساطير والقصص الخرافية ثم انتقلت هذه الأساطير عن طريق الوراثة حتى أصبحت عقائد دينية ، كان يلقنها الكهنة ورؤساء الدين للشعب من غير تفسير . ولما قطع الانسان فى سبيل التفكير المعقول شوطا عظيما توصل إلى معرفة فكرة الألوهية والآلهة ثم الاله الواحد الأحد ، وفلسفة الوجود والعدم وطبيعة الخير والشر ، وغير ذلك من النقط الفلسفية التى كانت محصورة معرفتها فى طبقة الكهنة . وهنا ظهر علم اللاهوت وفلسفة الدين . فوجدت النظريات الفلسفية المختلفة عن أصل الله والعالم وكان اهم هذه النظريات نظرية التوحيد Theism وتعتقد بان هناك اله واحد خالق هذا العالم له شخصية مقدسة ذات وجود قائم بنفسه وتدافع عن شخصية الله وصفاته البشرية الأمر الذي يتنافى مع جلال الالوهية بان الاعتقاد فى الله أمر يتعلق بالفكر البشرى ولذلك يجب أن تكون أفكارنا بشرية الشكل

ونظرية الحلول Pantheism وتعتقد بأن كل شيء هو الله وان الله هو كل شيء ، وتنكر التمييز بين الله والعالم وتدافع عن وجهة نظرها قائلة ان الله هو الحياة فهو موجود أينما كانت

ولما جاء كونت رفض اللاهوت الا انه اعتقد بالدين وأراد أن يجعل عبادة البشرية تحل محل عبادة الله وهو لذلك يعتبر أول المنادين بالبشرية

والناحية الأخيرة هى الناحية التاريخية وتشمل مقدار التطور الذى طرأ على النواحى الثلاثة . فاذا نظرنا الى الدين من هذه الناحية وجدناه كالانواع الحية فى الطبيعة ، لم يخلق فجأة بل مضى متطورا فى خطى نشوئيه تدريجية ، حتى أن الديانات التى أتى بها مبشرون قد كونت على أساس كان بذاته نتاجا لخطى من النشوء والتدرج المستمر ، ولكن كيف نشأ الدين وكيف تطور ؟

أما عن النقطة الأولى فهناك نظريات عدة وضعت عن نشوء الدين ويرجع اختلاف هذه النظريات إلى اختلاف البيئات التي درست فيها عادات القبائل والشعوب الفطرية ، فقد وجه الباحثون جهودهم في أواسط مختلفة وفي أوقات متغايرة ، فكان من ذلك النظريات المختلفة عن نشوء الدين

تعتبر نظرية تيلور عن نشوء الدين أول نظرية علمية مبنية على البحث العلمي وهي ترجع في الأصل في نشوء الدين إلى فكرة الانسان عن الروح التي نشأت عنها عبادة الموتى وهذه تدرجت في مراتب ثلاث عبادة الجثة ثم عبادة الروح باعتبارها ستبعث ثم عبادة الروح باعتبارها خالدة

ولكن جيوفنز أعلن ان الأصل الأول للدين هو الطوطمية ، والطوطم غالبا حيوان أو نبات تجعل الجماعة له رمزاً واسماً عامين ، ويعتبرونه الههم أي موجدهم وحاميهم . ويعتقدون فضلا عن ذلك انهم من سلالته ، أي انهم أقارب بعضهم لبعض ، لذلك كان الطوطم أيضا رمزاً لقوة ارتباط الجماعة

ولم يكد يبزغ فجر القرن الحالي حتى أظهر فريزر ان الدين أحد أدوار السحر ، فعند ما كان عقل الانسان الفطري في طفولته ، اعتقد ان لجميع القوى الطبيعية شخصية وارادة ، وعمد إلى استرضاء هذه القوى التي تتسلط على حياته ، فتملقها وعبدها وتودد اليها بمختلف الهدايا ، وعمد الى السحر يستعين به على تهدئتها والاستعانة بها

وعلى العموم فان هذه الفروض عن نشوء الدين تشترك في شيء واحد هو ان فكرة الانسان الأول عن الله ابتدأت تخلع على الآلهة الأشكال البشرية والحيوانية ويسمى هذا بدور الوثنية . ومع توالي الزمن أخذ عدد الآلهة يتناقص ، فلم يعد الانسان يؤله الا القوي الكبري في الكون وهذا دور الشرك أو تعدد الآلهة ، ثم تمشت الديانة شيئا فشيئا الى التوحيد . فلم يعد يرى الانسان الا الها واحداً ولكنه ظل الهاً أنتروبومورفيا « مزود بصفات بشرية وحيوانية » ثم أخذت تزول عنه أشكال الانسان والحيوان حتى أصبح لا شكل له الا أنه ظل إله انتروبوباتيا « مزود بالعواطف والاخلاق الانسانية » فكان العطف والحب والعدالة ضمن خصاله . وبمرور الزمن كانت الصفات والعيوب التي تكون الفردية تزول من هذا الاله الشخص الذي لا شكل له . فأصبح مجرداً لا عواطف له يتحرك فيه كل شيء ويحيا حياته